في شارع العجيبة

سراج حسين فتحي

١٤٤٨هـ

في شارع العينية



في شارع العينية



وقف زكي فوق العتبة الأخيرة من شارع العينية ثم التفت خلفه مصوبا ناظريه نحو باب السلام بالمسجد النبوي الشريف وبسمة أمل تشرق على شفتيه ، هز رأسه قائلا في نفسه : إن ربي يختبرني ، وسأنجح في هذا الاختبار ؛ قالها وهو مقتنع تماما أن الله سيعينه على تخطي

المشكلة التي تواجهه ، فرغم أنه ذهب إلى العم بكر والد صديقه عثمان في " سويقة " كما اتفقا في الليلة الماضية ، ولكنه لم يجد عنده ما يحل له قضيته إذ قال له : يا ولدي انت عارف أنو رمضان على الأبواب ، ولابد من شراء البضائع عشان الموسم ، وبعدين أنا أبغى أقولك حاجة بس ما تزعل مني ، ليش ما تستأجر بيت شعبي على قدك وتستر نفسك فيه ، ما دام انك ما تقدر تستأجر شقة ..؟

لم يتوقع زكي هذه الإجابة من والد صديقه عثمان لكنه تقبلها برحابة صدر ، ولم ينس أنه قبل ذهابه إلى دكان العم بكر كان قد طرق باب العم سليمان الذي تربطه بأبيه علاقة وطيدة ولم يجد عنده ما يشفي غليله ، لم تزده تلك المواقف إلا عزما ويقينا وتوجه نحو دكان العم صالح القماش وهو عم صديقه عيسى لعله يجد أحدا يعرفه ، لكنه خاب ظنه فلم يجد إلا أحد العمال الذين ليس بأيديهم حلا ولا عقدا ، كان في خاطره أن يمر بصديقه سليم في دكان والده بشارع العينية لعله يساعده على تجاوز محنته وبالفعل وجده جالسا كالعادة وراء أكوام الكولندي " و براد الشاي " جاهز ، فجلس وبدأ يسرد له قصته.

عندما تخرج زكي من كلية التربية بمكة المكرمة كان نصيبه أن يعين في مدينة بريدة عاصمة القصيم، وبعدما قضى بها عامين، وبعد لأي جاءه النقل إلى المدينة المنورة وهو ما كان يحلم به، فطيبة الطيبة حبيبة إلى قلبه ومعشوقته التي تنامى حبها في أعماقه منذ نعومة أظفاره، حينما كان

يأتيها من مكة المكرمة مع عائلته في كل عام تقريبا، وربما يقضون بها أحيانا شهرا أو أكثر .

وما تزال ذاكرته تسترجع كثيرا من بصمات تلك الزيارات العطرة ، فللمدينة في أعماقه أطيب الصور وأجمل المعاني، كانت مساكن أهلها تحيط



بالمسجد النبوي الشريف إحاطة السوار بالمعصم ، وما يزال يذكر كيف كانت النساء تزاحم الرجال في زيارة البقيع ، وما يزال يذكر كيف كانت بعض القبور تعلوها القباب وتكاد تختنق مما يغشاها من كثرة الزوار والزائرات ، وما يزال يتذكر" عيدة " تلك المرأة المعاقة التي كانت توضع في عربة بدائية

الصنع تتلقى الصدقات عند مخرج باب المجيدي وكان صوتها المبحوح يكاد لا يخرج من بين شفتيها إلا بشق الأنفس ٠

مما يحتفظ بعه زكي من ذكريات عن المدينة المنورة بداية الهدميات للتوسعة السعودية الأولى للمسجد النبوي الشريف عام ١٣٧٢هـ وقد كانت سنه آنذاك لا تتجاوز الخامسة، وكيف كان هو وخاله فتحي وأبناء العم عبيد الله المخرج يجرون خلف قلابات شركة بن لادن التي كانت تنقل حمولاتها من الهدميات وهم يصيحون على سائقيها وأصواتهم الصغيرة تكاد لا تسمعها إلا آذانهم ٠

كل تلك الصور تداعت من مخزون ذكرياته وهو يقف على الدرجة الأخيرة من بداية شارع العينية وهو ينظر إلى الحرم مبتسما، ولم ينس أشد ما مر به مع أقدم صديق له في هذه البلدة الطاهرة حينما زاره في مقر عمله وكان على يقين من أنه سيحل له المشكلة، لكنه فاجأه بما لم يتوقعه حين قال له وبكل برود: ليش ما تاخذ من البنك قرضا، ثم تسدده فأنت محتاج ٠٠؟

كانت هذه الكلمات كالصاعقة التي تحرق الأخضر واليابس، فلم يدر بخلده ذات يوم أن هذا الإنسان وهو من يعرف عنه من الصلاح بدلا من أن يعينه في محنته يطلب منه التورط في مستنقع الحرام، لكنه وكما تعود تقبل الموقف مبتسما موقنا أن الله سيعينه طالما أنه يحاول اجتياز الاختبار باقتدار ٠

في شارع العينية

عندما غادر زكي القصيم تلقاء طيبة الطيبة فوجئ بما لم يدر في حسبانه، فقد كانت إيجارات الشقق مشتعلة، فخلال أكثر من أسبوع وبعد البحث والتنقيب في كثير من أحياء المدينة المنورة لم يجد أية شقة تؤجر بأقل



من خمسة عشر ألف ريال سنويا، وكثير من الشقق كانت لا تقل أجرتها عن ثلاثين ألف ريال، في حين أنه في مدينة بريدة كان يدفع ألفي ريال تقريبا أجرة سنوية لشقته التي كانت تتكون من ثلاث غرف وفي موقع متميز، حيث كانت قريبة جدا من حلقة الخضار الرئيسة في وسط بريدة والتي يسميها أهل المنطقة بالجردة.

في عام ١٣٩٦هـ كانت بداية الطفرة والتي كان لها من الآثار السلبية على كل نواحي الحياة في المجتمع فقد تغيرت أحوال الناس عامة، وكم من الفقراء المعدومين تحولوا فأصبحوا في عداد أصحاب الملايين، وكم من

العلاقات الاجتماعية تفككت، وكم تغير الناس فيما بينهم، وكم من الناس تحول فأصبح فقيرا معدما ..!

عندما انتقل زكي من القصيم إلى المدينة المنورة لم يكن راتبه الشهري يتجاوز ألفي ريال ، رغم مرور أكثر من عامين على تعيينه و الزيادات التي طرأت على سلم الرواتب ، لكن كل ذلك لم يكن له بصمة واضحة في مسيرة الحياة الاقتصادية للموظفين العاديين ، فالأسعار كانت تنافس زيادات الرواتب ، فما أن يصدر في الليل قرار رسمي بأي زيادة في الرواتب إلا



ويصاحبه ارتفاع حاد في أسعار المواد التموينية والسلع الأخرى ، كما أن أجارات الشقق أصبحت تواكب تلك التغيرات بحذافيرها ، ولذلك لم يستطع زكي أن يجد له ولزوجته الشقة التي تناسبهما ولو كانت غرفتين اثنتين .

عندما لم يجد زكي ما يريد ، قرر أن يستشير أحد أصحاب المكاتب العقارية لعله يساعده على تجاوز العقبة ، فبعدما انتهى من أداء صلاة العصر في المسجد النبوي توجه إلى شارع قباء الطالع ودخل مكتب " الصبر العقاري " ، لم تكن بينه وبين صاحب المكتب أية معرفة ، لكنه

تمالك نفسه وحزم أمره فدخل عليه مسلما ، ولما جلس بدأ يسرد عليه قصته وكيف أنه لا يستطيع استئجار شقة رغم مرور حوالي أسبوع من البحث والتنقيب لم يتمكن من تحقيق حاجته فأسعار الشقق نار وراتبه محدود وهو يقيم وزوجته في فندق بهاء الدين بجوار مسجد الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وليس في جعبته حتى اليوم أكثر من أربعة آلاف ريال ..!

طلب منه صاحب المكتب أن يذهب إلى حارة المغيسلة و حدد له موقع البيت وأخبره بأن صاحب العمارة صديق له وهو لا يرد له طلبا؛ قال له زكي: لقد ذهبت إليه، وأراني الشقة وهي مناسبة جدا، لكنه اعتذر بأنه لا يؤجرها لأحد، فلديه بنات ويخشى عليهن؛ قال له صاحب المكتب: لا يهمك، سأطلب منه ولن يخيب رجاءك بإذن الله.

في اليوم التالي وعندما طرق زكي باب العم زكريا وبعدما أخبره بما حدث مع صاحب المكتب العقاري، وافق على تأجيره الشقة، وطلب منه مبلغ ثمانية آلاف ريال عدا ونقدا؛ ولم يكن أمام زكي إلا الموافقة، رغم أنه لا يملك من هذا المبلغ إلا نصفه، ولكن طلب منه مهلة فليس بين يديه سوى أربعة آلاف وسيحاول إكمال المبلغ قريبا .

ما أن حل الليل حتى ضمت الشقة زكي وزوجته رقية، وكانت مناسبة جدا لهما، فهي تتكون من ثلاث غرف وصالة معقولة تتوسط الشقة ومطبخ واسع وتقع في الدور الأرضي، وكان صاحب العمارة وأهله يسكنون في

الدور الفوقاني، ومعروف عن المغيسلة بأنها حارة هادئة قريبة من الحرم إلى حد ما، ولم يجد زكي ما يضايقه في هذا الموقع فمميزاته عديدة وكأن الله قد بعثه إليه على طبق من ذهب..!

بعد عصر يوم الأربعاء كان زكي يقف مع صاحب العمارة العم زكريا أمام البيت الذي فاجأه بقوله: بعد بكرة أول رمضان، وإن شاء الله بعد صلاة الجمعة تحضر بقية المبلغ أربعة آلاف ريال أو تشيل العفش من الشقة!

لم تهزه المفاجأة، بل كانت إجابته جاهزة: ولا يهمك ..!

قالها ويقينه بربه لم يتزعزع لحظة واحدة، وهو لا يملك سوى أربعة آلاف ريال وليس في ذهنه كيفية توفير بقية المبلغ، ودخل الشقة بعدما ودع العم زكريا ولم تظهر على محياه أية علامات للتوتر أو الخوف من المجهول، قال لزوجته: صاحب العمارة يطلب بقية المبلغ غدا بعد صلاة الجمعة وأنا ما عندي إلا الستر، قولي لي إيش رأيك يا رقية..؟

لم يكن لدى رقية أية إجابة جاهزة، لكنها قالت له : طيب اطلب من أهل مكة ، يعني من سيدي أبوك أو أبويا ، المهم لا تشيل هم يا زكي ؛ قال لها بكل ثقة : أنا ما أبغى أطلب من أحد من أهل مكة وبإذن الله تتدبر ..!

عندما انتهى زكي من سرد قصته على صديقه سليم قال له : شوف أنا عندي في البيت شوية فلوس أظنها ألفين ريال ، ولا يهمك ، تجيني بعد

صلاة العشا وتحصلها جاهزة بإذن الله ؛ تنفس زكي الصعداء فقد بدأت خيوط المشكلة تتفكك ؛ وتذكر صديقه حامد الذي عادة ما كانا يقضيان ما بين المغرب والعشاء في كازينو العنبرية يرتشفان الشاي ويتبادلان هموم الفكر والثقافة ، وسرعان ما استأذن من سليم منطلقا نحو بيت حامد في



شارع العنبرية ، وعندما دق جرس الباب نزل إليه حامد بابتسامته المعتادة ، وأخذ بيديه ليصعدا إلى الدور الفوقاني حيث المجلس ، ولم تمض دقائق حتى كانا يرتشفان الشاي المنعنع ، وحتى لا يمر الوقت بادره زكي بشرح قصته، وما أن انتهى من تفريغ شجونه ، حتى بشره حامد بوجود بقية المبلغ لديه ، ولم تمض دقائق حتى كان بين يديه ، وهنا حمد الله وتنفس الصعداء مرة أخرى ، وفي صبيحة يوم الجمعة كان المبلغ المطلوب لصاحب العمارة جاهزا بين يديه وفوقها "بوسة على اليد "كما يقال.

لم تكن كلمات صاحب العمارة وطريقته في طلب الأجرة كاملة لتخلق أية مشكلة بين زكي وبينه، فقد أثبتت الأيام أن الرجل وأهله لهم جيرة لا يمكن نسيانها، إلى جانب أنه كان معروفا بين كل من له به صلة بأنه حقاني وصريح، وهو بدون شك صاحب حق، ولذلك فلم يدر بخلد زكي التأثر بذلك، وفي كل مرة تتأكد لدى زكي وزوجته أن هذه العائلة تمثل أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخلاقهم الطيبة وحسن ضيافتهم وجوارهم الذي لايعوض.

ذات يوم كانت زوجة زكي تتوجع من أثر نزيف أصابها، فاضطر للذهاب إليها إلى مستشفى الولادة بباب الشامي وقرر الطبيب إجراء عملية تنظيف لها، أي أنها لابد وأن تبقى في المستشفى، وحاول زكي أن يكون له حرية الدخول والخروج للوقوف بجوار زوجته لكن الطبيب أكد له عدم إمكانية ذلك، وأخبره بحاجتها إلى دم


مستشفى الولادة بباب الشامي سنة ١٤٠١ هجري

وعليه أن يدبر هذا الأمر، ولكن لم يتم ذلك فقد تم توفير الكمية التي تحتاجها من الدم .

إبان وجود رقية في المستشفى كان زكي وحيدا في بيته، ولم ينس جيرانه وحدته فكانوا يدعونه إلى تناول وجبة الغداء لديهم، ولما عادت زوجته إلى البيت كان الجيران يكرمانهما بمائدة متكاملة كل يوم خاصة وقت الظهيرة، بل لم يكن زكي يشتهي طبخة بذاتها حتى كان يجدها بين يديه أكثر من مرة .

كانت جيرة عائلة أبو حسان العم زكريا ذات بصمة عميقة في أعماق زكي وزوجته رقية، فهذا لا ينكره إلا لئيم، فقد كانوا على قدر كبير من الطيبة وحسن الجوار، ولكنها لم تدم طويلا ففي نهاية العام صدر قرار الوزارة بنقل زكي إلى مدينة جدة، لكن المعروف باق، والجيرة الطيبة لا يمكن أن تنسى .